

أسباب عطالة الأمة وعدم فاعليتها

عبد الله باه

باحث ... أكاديمي .. السنغال

طلّاع المسلمين بنور التوحيد لانقاذ بني البشر من براثن الشرك، وتحريرهم من قيود العبودية، ففرقت في زمن قياسي رايات الاسلام خفاقة فوق الامبراطوريات المجاورة، فقبلت بحكم المسلمين وقيادتهم للعالم، بقوة إيمان الرجال، وعدالة الاسلام، وشففته بالانسانية (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الانبياء ١٠٧]

ولكن بعد العصور الذهبية من تاريخ الاسلام سرعان ما انقلبت الأمور رأساً علي عقب، وانقلت من أيدي المسلمين زمام القيادة الي غيرهم، وزحزحوا عن مركز الدوران، حتي أصبحوا في المجتمع الانساني أضيع من الأيتام في موائد اللثام.. ولهذا التراجع الخطير في دور الأمة الاسلامية الحضاري، وتحولها الي شرادم منزوية تعيش في هامش الحياة مستهلكة من إنتاج الآخرين، أسباب أهمها في نظري:

١) الانسلاخ عن الهوية الاسلامية :

التي رشحت الرعيل الاول للصدارة، وهي التمسك بالكتاب والسنة، فقد حكم المسلمون الأوائل الوحي الإلهي ممثلاً في القرآن والسنة النبوية علي حياتهم اليومية، في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم وسلوكهم العام والخاص، فوضعوا أنفسهم

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام علي نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين.

الاسلام هو، كما قال الصحابي الجليل ربيعي بن عامر رضي الله عنه في حرب القادسية حين سأله رستم قائد الفرس: من أنتم، وما مهمتكم؟ فرد قائلاً: [نحن قوم بعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد الي عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا الي سعتها، ومن جور الأديان الي عدل الاسلام]. نعم فالأمر كما قال .. فهو نظام الله الشامل الذي خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب اليه من حبل الوريد، لتنظيم حياته الدنيوية والأخروية، وضبط علاقاته بنفسه وبربه وبمحيطه مسلمين وغير مسلمين، أفراداً وجماعات أو دولاً، في السلم وفي الحرب، فلم يفرق بين ما لله وما للقيصر، يقول تعالى (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [القصر ٧٧] وهو دين الوسطية، لأنه خلاصة متوازنة بين روحية المسيحية ومادية اليهودية.

وبهذا المفهوم العام للاسلام، أرسى النبي صلي الله عليه وسلم قواعد الدولة الاسلامية الأولى في المدينة المنورة، فانطلقت منها

٢) الجهل والامية:

الاسلام دين العلم، شرفه وكرم المشتغلين به، وحث عليه القرآن بأكثر من آية، وبأساليب مختلفة، منها قول الله تعالى (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر ٩] وقوله تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) [النحل ٤٣] وقول سبحانه وتعالى (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) [آل عمران ٧] بل جعل معرفة الله بصفاته وأسمائه وأفعاله شرطاً لصحة الإيمان به.

كما نوه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم ورفع من شأنه، وجعل طلبه فريضة على كل مسلم، وفضل العالم على العابد فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.. ولا يمكن ان يتصور أي تقدم حضاري بمعزل عن العلم والعلماء.

وإذا حل الجهل محل العلم في أي مجتمع اسلامي، ندرت الثقافة الاسلامية، كما هو الحال في عمق الوطن الاسلامي في جنوب الصحراء الافريقية، تفشت الشعوذة والسحر والرقى غير المشروعة والتمائم والاستعانة بالموتى والمقبورين واضرحة الصالحين والأولياء والنذر لغير الله وتقديم القرابين له، والطيرة والتنجيم وقراءة حظوظ الناس في الكف او الخطوط علي الارض (الزمل) أو في الكؤوس والفناجين، اعتقاداً من الكهنة والعرافين ومن يأتيهم ويصدقهم ان هذه الخرافات لها تأثير سلبي أو ايجاباً في حياة الناس وفي تغيير القضاء والقدر، ومع ذلك يصلون ويصومون، ولا

تحت مراقبة الله أو مراقبة الوازع الديني، المركوز في ضمائرهم الحية، فعاشوا سعداء قانعين بما قسم الله لهم من رزق، ومجاهرين في سبيل الله لتبليغ رسالتهم الانسانية الي شعوب العالم، رافعين منارات العلم ليقتبس من نورها العالم الغربي عن طريق جامعات الاندلس، وصقلية، وجنوب ايطاليا، ومن خلال الحروب الصليبية في الشرق، حتي جاء بعدهم جيل أصيب بمرض الجشع والاستغراق في الماديات، فانبهروا بما في الغرب من حريات مزيفة، ومذنيات مزورة، وحضارة براقة لكنها مغشوشة، فتخلوا عن دستور الأمة ومصدر سعادتهم، واحتكموا الي القوانين الوضعية، لأنها في نظرهم أدري بشؤون حياتهم المعاصرة، وحلولها أكثر مناسبة لقضاياهم النابعة من روح العصر، فتركوا حلول من قال (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [المائدة ٤٥] لأنها في زعمهم قد عفى عليها الزمن، وليس معقولاً في منطقهم ان تعالج قضايا القرن العشرين بحلول احتمالية وضعت في مطلع القرن السابع الميلادي لأمة بدوية متخلفة قصورها علي ظهور جمالها، فصدق عليهم قوله سبحانه وتعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الرعد ١١]، فحل بهم الهوان والذل، وتأخروا عن ركب الحضارة الانسانية، وانترعت منهم راية الحضارة الانسانية، وأصبحوا تابعين بعد ان كانوا متبوعين.

يرون ان هذه الممارسات الشركية تتنافى مع الايمان بالله ويسيران في اتجاهين معاكسين لا يلتقيان أبداً .. واذا حذرته من خطورتها علي العقيدة الاسلامية وصفوا عملك بأنه العلم الجديد.

وقد يري الانسان من جهلة المسلمين في بعض المدن الافريقية من يتخذ اصناما من الحجارة والخشب في غرفة خاصة بنيت في احدي زوايا داره، يقرب لها القرابين من الذبائح واللبن، دون ان يدرك مخاطرها علي عقيدته وايمانه، بحجة أنه ورث هذه الاصنام عن الآباء والاجداد ، وانه يحتفظ بها ليس رغبة فيها بل رهبة منها، مدعياً أنه لو حاول التخلص منها أو منع القرابين عنها لأمطرت عليه وابلاً من المصائب تمتد أثارها الي ابنائه وأحفاده .. ولا يعوزة ايراد الخرافات وضرب الامثال بمن حاول ان يتمرد علي تقاليد الاسرة، فأصبح ذات يوم تحت وطأة السياط تمزق جسده ولا يرى أحداً، فاضطر الي ان يتوب ويقدم القرابين للأصنام .. ولو قلت له : انا أكفيك عنها، لو اذنت لي لرميتها في البحر .. لرد عليك قائلاً : حياتك غالية علي ولا أريد ان تموت أو تصاب بأسرتك بسوء.

فمن لي باقناع مثل هذا الرجل الجاهل اذا كان ثمن اقتناعه في نظره هو الموت والهلاك له ولأسرته، وأي دور حضاري ننظره من عالم عسّش الجهل علي بعض اجزائه وناء بكله وضربت فيها الخرافات اطنابها ، وسدت الاوهام والممارسات الشركية أمام نور العلم والحقيقة والتوحيد الخالص كل

المنافذ، واي غباوة يمكن ان نسميها تقدماً اذا كانت تنتمر علي عقيدة الامة الاسلامية، وتقلب لها ظهر المجن.

٣) المرض والفقر:

- وقد قيل قديماً ان (العقل السليم) ، رائد الابداع والابتكار في العلوم التكنولوجية الضرورية لتطوير حياة الأمم، في (الجسم السليم)، المفتول السواعد القادر علي الانتاج الاقتصادي لضمان الأمن الغذائي للشعوب، والذي يعتبر حقاً نقطة الانطلاق لتقدمها في مجالات الحياة الأخرى وارتداد شعبيها .. وقد صدر عن منظمة الأمم المتحدة تقرير يوم ١٢/١٢/١٩٩٧ بمناسبة اليوم العالمي لمرض نقص المناعة المكتسبة [السيدا]، جاء فيه ان الذين يحملون فيروس هذا المرض الخبيث في العالم بلغ عددهم عشرين مليون نسمة وسيصل في عام ٢٠١٠ الي أربعين مليون نسمة، ويصاب به يومياً في افريقيا وآسيا ستة عشر ألف شخص. وفي الشمال تنفق الحكومات في علاج مصاب واحد ستة عشر ألف دولار أمريكي ، وفي الجنوب ستة عشر دولار امريكي فقط ، لأن امكاناتها المادية الضئيلة لا تستطيع ان تغطي أثمان الادوية الضرورية وتوفير أماكن لازمة للاحتفاظ بها، وتهيئة الجو المناسب فيها لتركيبها الكيماوي، وتسخير الوسائل الفعالة لتوزيعها بين المحتاجين في عمق البلاد .. ومعلوم ان العالم الاسلامي يتشكل من آسيا وافريقيا باستثناء جيوب له او تغلغات بشرية في أوروبا وأمريكا.

ارادتها الصماء ، حتي اذا أدرك ان نجمه في طريقه الي الأفول ، ولم يبق له إلا المغادرة النهائية، أخذ بتقطيع أوصال المنطقة برسم حدود عشوائية غير مبال في ذلك بالفواصل الطبيعية من أنهار وسلسلة جبال وامتدادات عمرانية وبشرية ، فادى ذلك الي تقسيم بعض مدن وقرى وتجمعات قبلية بين دولتين منفصلتين ، او اقامة دولة داخل دولة أخرى.

كل ذلك يجعل الحديث عن معوقات التقدم الحضاري في دول الاغلبية المسلمة، عمق العالم الاسلامي، بمعزل عن دول الجوار وتجاهلها غير منسجم، فالتنمية البشرية في مثل هذا الوضع الغريب ، تتأثر بافرازات الاحداث الاجتماعية الكبرى. وتتجاوب مع اصدائها المؤلمة داخلية كانت كالحروب الاهلية والانقلابات العسكرية للاطاحة بحكومات منتخبة ، وتزوير الانتخابات ، والاعمال الارهابية ، واغتيال شخصيات سياسية، أو خارجية كمخيمات لاجئ الحروب الاهلية، وما يترتب عليها من تخريب الاراضي الزراعية ، ونهب ممتلكات المواطنين وتلويث البيئة ، وانتشار أمراض وبائية، اعلان حالة استنفار عسكري في الحدود، اذا تحولت الحرب الاهلية في دولة مجاورة الي حرب عصابات تحاول فيها الفصائل المتناحرة استخدام أراضي دول الجوار لشن اعمال حربية، فيرتكب الامن الداخلي ، الذي يعتبر الركيزة الاولى في أي رقي حضاري أو مدني، وينهار الاستقرار الاقتصادي.

وهذا ما حدث بالفعل في الاقليم من جراء

- من منطلق هذا التقرير، نستطيع ان نقول بكل صدق وأمانة : إن المرض والفقر يشكلان أخطر تحد في طريق تقدم الشعوب الاسلامية للوصول الي مصاف الأمم الراقية والي مركز صنع القرارات الخطرة لتصحيح مسار العالم، وترشيد توجهاته السياسية والاقتصادية والحربية.

٤) الحروب والنزاعات المحلية والاقليمية:

- تعرض العالم الاسلامي لصراعات مريرة وأحداث دموية ، راح ضحيتها نخبة من فلدات كبده، فأنهكت قواه واستنزفت خيراته، وأصابته في بعض جزائه بشلل، وعرضته لتدخل اجنبي في شؤونه الداخلية ، وأعاقت تنميته بمفهومها العام، وساهمت كثيراً في تهميش دوره الحضاري بين شعوب العالم ، فهي مع كثرتها وتنوعها وتفاوتها في حدة التأثير سلباً علي حياة الشعوب الاسلامية وزحزحتها عن مقصورة القيادة للمسيرة الحضارية، يمكن عرضها وربطها بمناطقها الجغرافية علي النحو التالي:

أ) إفريقيا جنوبي الصحراء:

ان الموضوعية او أمانة التعامل مع الحقائق التاريخية بشئ من الواقعية تقتضي منا ان ننظر الي هذا الاقليم بمنظار من الشمولية ، نظراً للتراطيب التاريخي الوثيق بين دوله، وتداخل حدودها الجغرافية والبشرية، وعلاقات الدم واللغة والثقافة والعادات والتقاليد بين شعوبها التي قاومت أطماع الاستعمار فقصت مضجعه، واصطدم جشعه التوسعي علي حساب الآخرين بصخرة

والاقتتال الداخلي الذي ينهك الامة والدولة على حد سواء.

(٥) الاستعمار:

قد لا نستطيع ان نجرد الاستعمار من أي أثر ايجابي في تطوير أساليب حياة شعوب افريقيا المسلمة ونحملة المسؤولية الكاملة في تخلفها وكل سلبات ذلك.. فالواقع التاريخي لا يقر هذه الفكرة، ويكفي لتبريرها انه -علي الأقل-، وجدها كيانات وقوميات صغيرة في تجمعات بشرية متفرقة في صورة ممالك وامبراطوريات متناحرة ومتصارعة فجمعها في كيان موحد وقومية كبرى. وصهرها في بوتقة دولة واحدة ترضع الجميع بأنحاء جنسية واحدة ووطنية موحدة.. خطط فيها المدن العصرية، وبنى فيها الطرق والعمارات الشامخة والمستشفيات مجهزة بأحدث المعدات الطبية العصرية، وأنواع من الأدوية مختلفة، تحت اشراف أطباء مهرة من تخصصات مختلفة، ومد شبكات المياه والكهرباء علي طول البلاد وعرضها، وأرسي فيها قواعد للحكم، ونظام لاختيار الحكام وممثلي الشعب.

إلا أننا نستطيع ان نقول وبدون اجحاف : انه أخذ واستفاد أكثر مما أعطى وأفاد.. فقد روج في امريكا واوروبا تجارة الرقيق لاسعاد شعوبها علي حساب شرف الشعوب الافريقية وكرامتها، وأنشأ أسطولاً بحرياً لشحن العبيد من صفوة أبناء القارة في الاغلال والسلاسل الي الغرب في رحلات

حروب أهلية وحشية أتت علي اليابس والاخضر في الكونغو الشعبية، والكونغو الديمقراطية، وبورندي، وليبيريا، وغينيا بيساو، وسيراليون، رغم أنها ليست من الدول الاسلامية ولكنها مجاورة لها.. علاوة علي ذلك فقد طرد منها من نجا من الموت من الجاليات المسلمة المسيطرة علي الاسواق التجارية، بعد ان نهبت أموالهم التي كانت مصدراً سخياً لدعم اقتصاديات بلادهم المسلمة ولتخفيف الحالة المعيشية فيها لشريحة كبيرة من الأسر المسلمة.

وقد تحدث من حين لآخر بعض احداث مفزعة بين الدول الاسلامية نفسها، وإن لم تصل الي درجة الغليان الحربي، ولكنها تؤثر كثيراً في توسيع هوة الخلاف وسوء التفاهم، وإثارة الاحقاد والعداوات بين شعوب الاقليم، وإشاعة حالة من النفور وعدم الثقة بين القادة، كأحداث عام ١٩٨٩م التي ما زالت آثارها السلبية حتى الآن ماثلة للعيان بسبب خلاف بين مزارعين في جمهورية السنغال ورعاة في جمهورية مورتانيا حول جزيرة (ندوندوخوري).. الحدودية، أدى الي اعمال عنف راح ضحيتها عشرات من الابرياء من جاليات البلدين لدي الطرف الآخر، بعد نهب محلاتهم التجارية وحرق ممتلكاتهم وكادت الدولتان الشقيقتان تدخلان في دوامة حرب ضروس لولا ان ادركهما الله برحمته.

(ب) افريقيا شمالي الصحراء:

وليس شمالي الصحراء بأحسن حالاً من جنوبها حيث الاضطرابات والنزاعات

السنگال] وفي السطور التالية يعلل الكاتب هذا النفور، بأن السنغاليين كانوا يحاربون الي جانب الجنود الفرنسيين في سورية لاجهاض ثورتها الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي.

كما اعتنى الاستعمار برعاية الاقليات المسيحية علي حساب الاغلبية المسلمة فكون عناصر منها ومن الأسر المسلمة، لكنها متغربة، في مدارس الارساليات التبشيرية، او في جامعات اوروبا ، قرباهم علي نمط الفكر الغربي، وغذاهم بألبانه الملوثة بفيروس كراهة الاسلام وثقافته وفكره فتأهلوا لحمل راية الاستعمار في ثوبه الجديد مدعين بالقواعد العسكرية لضمان استمرار هيمنته علي المؤسسات التشريعية والتنفيذية والعسكرية والاقتصادية وتسخيرها لخدمة مصالحه.

فاذا كنت مثلاً تجيد القراءة لاشارات الظروف ، وتفهم إحياءات الملابس التي وصلت بغير مسلم الي سدة الحكم، علي شعب تصل نسبة المسلمين فيه الي ٩٥٪ فإن قراءتك وفهمك لا يمكن ان يقوداك الي بدائل اخري غير هذا الذي نقول، ويكفي دليلاً تعبيره بنفسه عن الجانب الخفي من رسالته الاستعمارية أثناء زيارته للمقر البابوي في روما، قائلاً: لا استطيع ان أحول بين المسلمين وعقيدتهم ، ولكن استطيع ان أجعلهم أسوأ مسلمين في العالم.

من هذا العرض يتضح لنا أن الاستعمار ، بتعاون مع عملائه يشكل اخطر تحد يعوق

بدون عودة، من جزيرة [غوري السنغالية] التي ستظل وما تحتوي عليه من دار العبيد التاريخية وغرفها وممراتها المظلمة وسلاسلها المعلقة ، وسمة عار علي جبين الغرب.

نعم قد دمر الاستعمار وخرب أكثر مما بثي وعمر.. بني الجسم وفرغه من روحه.. غير من ثقافتنا الافريقية ، وتربيتنا الاسلامية وحاول قطع كل صلة لنا بماضيها المجيد المشرق بنور الاسلام، فأغلق الكتاتيب القرآنية والمدارس العربية الاسلامية بأسلوب في غاية البربرية ، وقيد بقاءها مفتوحة بشروط تعجيزية، وأحل محل تعليم اللغة العربية التي كان من المفروض ان تكون اليوم اللغة الرسمية للعالم الاسلامي كافة ، تعليم اللغة الانجليزية او الفرنسية ضمن النظام العلماني.

وبذلك تمكن الاستعمار من خلق حواجز لغوية بين الشعوب الاسلامية ، وفرض نظام التجنيد الاجباري علي الافارقة لتمويل مشروعات حربية لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، لتحقيق اطماعه التوسعية، أو لاضماد ثورات وطنية في بعض اجزاء العالم الاسلامي، وبذلك نجح في خلق العداوة بين الشعوب الاسلامية.

ولهذا لم استغرب حين وقع بصري ، وأنا طالب في الأزهر ، علي جملة في الصفحة الأولى من كتب من سلسلة الشعوب الاسلامية الافريقية، لكاتب عربي مشهور. تقول [ان النفس في بلادنا لا ترتاح الي كلمة

مشاريع الأمة الإسلامية الحضارية، ويبدد جهودها لاستعادة دورها القيادي .

مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة المسلمة:

إن مسيرة الأمة المسلمة ، وما تعرضت له خلال تاريخها الطويل من عمليات التمدد والانكماش، أو المد والجزر، توحى بأن الحالة التي آلت إليها الأمة الإسلامية من التدني والذبول، والتقهقر والأفول ، نتيجة لتغير الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية سلباً من عصر الي آخر، ما هي إلا كبوة فاجأتها في قارعة الطريق ، وستقال من عثرتها، ولا يتصور بحال من الأحوال ان تكون نهاية لمسيرتها العريقة، بل هي كجمرة تراكم عليها رماد كثيف فظلت قابضة في عزلتها عن عوامل الانتعاش والاشتغال ، تنتظر الفرصة الاولى من هبوب الرياح لتسفي عنها حجبها لتعود الي التأجج والتوقد، وتكون مصدر النور والدفء، تبث في الحياة طاقة جديدة للاندفاع الي تحقيق مزيد من سعادة الشعوب ورفاهيتها.

هذه الفرصة الذهبية تكمن في استعادة الأمة الإسلامية هويتها الإسلامية، التي تميزها عن غيرها من الأمم، وتعالج كل الاسباب التي شكلت للأمة جسر العبور الي وضعها الحالي وتستجيب لأمر ربها بسلوك طريق العلم، يقول سبحانه وتعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر ٩] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم [طلب العلم فريضة علي كل مسلم] (اخرجه ابن

ماجة)

ويدعو الرسول صلى الله عليه وسلم الي العمل والعيش بعرق الجبين فيقول [لأن يحتطب أحدكم حزمة علي ظهره خير له من ان يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه] (اخرجه البخاري)

كما يدعو الي الوحدة والتآلف ونبذ الخلافات، فيقول صلى الله عليه وسلم [تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى] (اخرجه البخاري) ويدعو كذلك الي كسر قيود العبودية لغير الله، والاندفاع في آفاق الحرية.

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه [متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً]

فعودة الأمة الي هويتها الإسلامية هي الضمان الوحيد لاستعادة مركزها القيادي وتجديد دورها الحضاري ، ولا أرى ذلك مستبعداً إذا أحسن كبار علماء الأمة الإسلامية رعاية وترشيد الصحوة الإسلامية، التي بدأت تفرض نفسها في كل مكان حتى في المؤسسات التعليمية الغربية، ليرسموا معالم الطريق لنهضة الأمة الإسلامية، بعيدة عن كل مظاهر التطرف والتعصب الديني والتفوق في إطار أفكار دينية ضيقة، ومراعية وسطية الاسلام، واعتماده روح الحوار الحر الهادف وسيلة للدفاع عن مبادئه وإقناع الآخرين، وما ذلك علي الله بعزیز.